# دروس في الكتمان
## من الرسول القائد

تأليف

اللواء الركن
محمود شيت خطاب

مؤسسة الرسالة
بيروت

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ شارع سورية
بناية صمدي وصالحة ص٠ب ٧٤٦٠
هاتف ٢٩٥٥٠١ برقيا : بيوشران

# دروس في الكتمان

## من الرسول القائد

بسم الله الرحمن الرحيم

( لقد كان لكم في رسول الله أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لمن كان يرجو الله واليومَ الآخرَ
وذكر الله كثيرا )

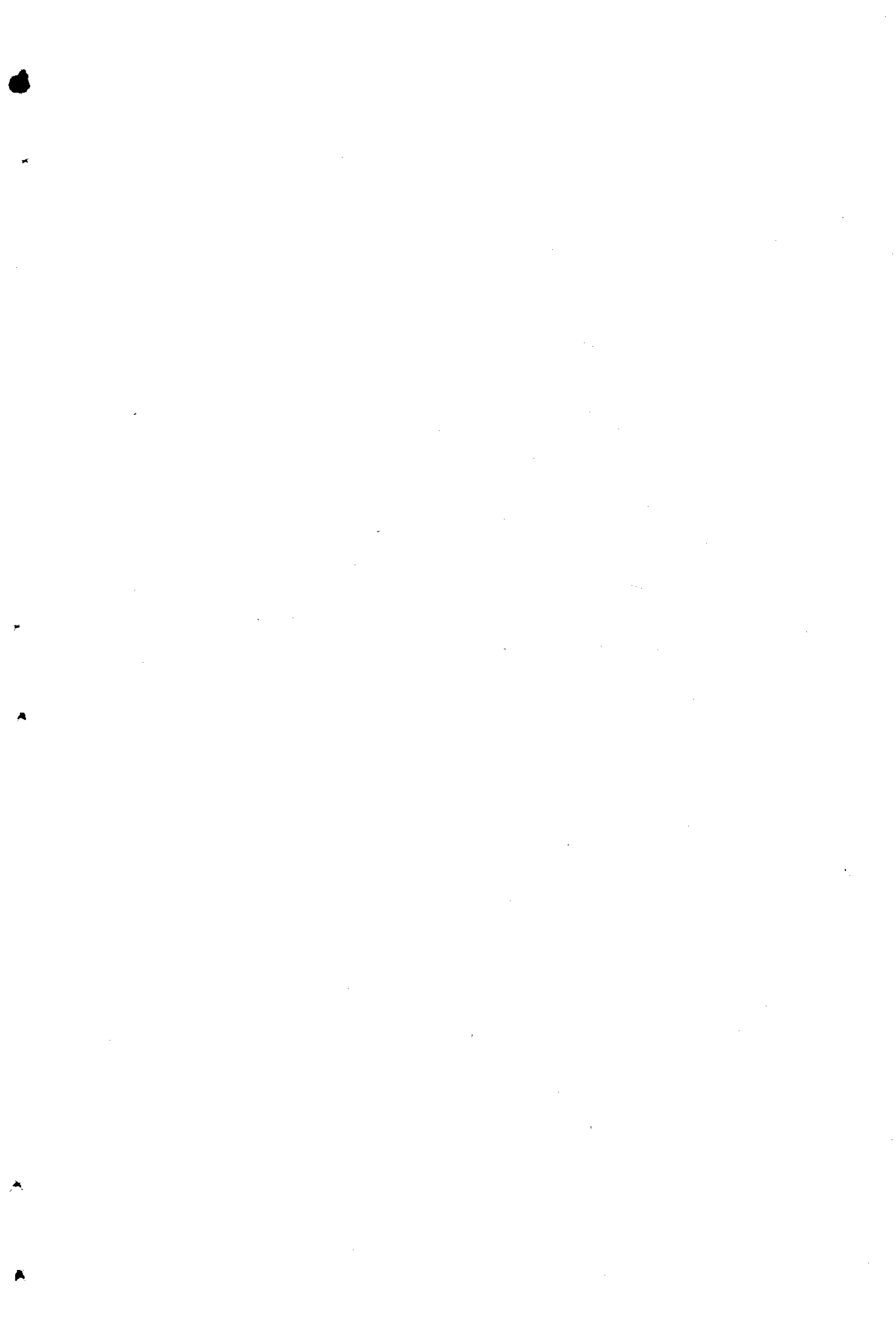
( القرآن الكريم )



# الإهداء

الى الفدائيين الفلسطينيين الذين
يتكلمون بالدم

محمود شيت خطّاب



# المقدّمة

في حياة النبي صلىّ الله عليه وسلّم العسكرية ، أمثلة رائعة في ( الكتمان ) ما أحرانا أن نذكرها ونتذكرها في هذه الظروف العصيبة التي تجتازها الأمة العربية بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

وليس سراً ، أن إسرائيل بذلت جهوداً جبّارة من أجل الحصول على أدق التفاصيل العسكرية عن العرب ، فقاتلت في تلك الحرب مفتوحة العينين : تعرف كلّ شيء عن العرب ، ولا يعرف العرب عنها شيئاً !

ورب كلمة يقولها عابر سبيل في سيارة أو مقهى أو ندى ، يتلقفها جاسوس أو عميل ، تؤدي إلى نكبة قاصمة للظهر وإلى خسائر فادحة في الأرواح والأموال .

والنبي صلىّ الله عليه وسلم يقول : « المسلم مَنْ

سلم المسلمون من يده ولسانه » .

ولعلّ تفسير هذا الحديث النبوي الشريف واضح ، ولكنني أجد فيه اليوم معاني أعمق مما يخيل للكثيرين من المفسرين .

فالمسلم الذي يشتم أخاه المسلم، قد يلحق به ضرراً شخصياً ضمن نطاق محدود .

ولكنّ المسلم الذي يذيع أسرار إخوانه المسلمين قد يلحق بهم ضرراً مصيرياً يودي بهم إلى الدرك الأسفل استعباداً وذلاً وخسائر بغير حدود .

وحين اقترح عليّ المذياع المصوّر[1] معالجة الجانب العسكري من حياة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسّلام ، قرّرت أن أتكلم عن ( الكتمان ) شعوراً مني بأنه موضوع السّاعة .

ذلك لأنني لمست بأنّ الكثيرين يثرثرون بالأسرار العسكرية بشكل يقطّع نياط القلب ، ويفيد إسرائيل ويضر العرب دون مبرر .

ونشر هذا البحث قد يفيد في هذه الظروف ضمن أوسع نطاق .

والله أسأل أن يفيد به ويجعله خالصاً لوجهه الكريم .

---

(١) التلفزيون .

# معنى الكتمان

## - ١ -

في اللّغة : كَتَمَ الشيءَ كَتْماً وكِتْمَاناً : ستره وأخفاه ، ومنه : الكُتَمَة : الذي يَكْتُم سِرّه ، والكَتُوم الذي يَكْتُمْ سِرَّه .

ولكنّ (الكِتْمان) في المصطلحات العسكرية الحديثة ، معناه : إخفاء المعلومات العسكريّة الخاصّة بقواتنا وأسلحتها وتنظيمها وتجهيزها وقيادتها وحركاتها ، والخاصة بطبيعة الأرض في بلادنا أيضاً ، عن العدو والصديق ، وعدم إفشاء الأسرار العسكرية مهمّة كانت أم غير مهمّة ، وصغيرة كانت أم كبيرة ، وتافهة كانت أم خطيرة ، لكل إنسان سواء كان عدواً أم صديقاً .

وكتمان المعلومات العسكرية عن العدو لا يحتاج إلى بيان ، فمحاذيره معروفة ، ونتائجه معروفة أيضاً .

ولكنّ كتمان المعلومات العسكرية عن ( الصّديق ) ، يحتاج إلى شيء من البيان .

الصديق نوعان : نوع له علاقة بالقضايا العسكرية ، فاذا كان هذا الصديق فوق الشبهات ، فلا بأس من اطلاعه على المعلومات العسكرية التي لها صلة مباشرة بعمله وواجبه العسكري دون زيادة أو نقصان .

ونوع لا علاقة له بالقضايا العسكرية ، فيجب ألاّ تفشى له المعلومات العسكرية في أية حال من الأحوال .

فقد يكون هذا ( الصّديق ) يحبّ التظاهر والتّباهي ، فيذيع ما اطّلع عليه من الأسرار العسكرية .

وقد يكون غير مقدّر لأهميّة ( الكتمان ) ، وقد يكون غير مقدِّر لأهمية ما اطّلع عليه من أسرار عسكرية ، فيذيع ما يعرفه عنها لكل مَنْ هبّ ودبّ .

ومن المحرّم على العسكري الحق ، أن يبوح بأسراره حتى لوالديه وذوي قرباه ، وفي التاريخ العسكري أمثلة كثيرة ، نذكر كيف استطاع العدو أن يطّلع على الأسرار العسكرية من عوائل العسكريين — خاصة النساء منهم — ، فضيّعت تلك الأسرار كثيراً من المعارك والحروب .

إنّ الأسرار العسكريـــة ، يجب أن تبقى في طيّ ( الكتمان ) الشديد ، ولا عذر لمن يذيعها بحجّة أو بأخرى

للعدو أو الصديق على حدّ سواء .

والذي يطّلع على الأسرار العسكرية ، يجب أن يصونها بالكتمان ، لا فرق في ذلك بين العسكريين والمدنيين

## أهميـــة الكتمان

## - ٢ -

لقد كان من جملة أسباب انتصار إسرائيل عـــلى العرب في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، هو أن إسرائيل استطاعت إقتناص الأسرار العسكرية العربية ، فحاربت العرب على هدى وبصيرة .

وقد صرّح المسؤولون العسكريون في إسرائيل ، بأنّ من أهم أسباب انتصارهم على العرب ، أنّ مخابراتهم استطاعت بوسائلها الحصول على أدق المعلومات العسكرية عن العرب .

والدرس الكبير الذي يجب أن يتعلّمه العرب من تلك الحرب ، هو أن يصونوا معلوماتهم عن أسرارهم العسكرية ، وأن يتحلّوا بأعلى درجات ( الكتمان ) .

ولو كان العرب شعوبـــاً وحكومات ، وأفراداً وجماعات ، عند مسؤولياتهم التاريخية في ( الكتمان ) ،

وهم في حرب حياة أو موت ، ضدّ إسرائيل المعتدية المغتصبة ، لما استطاعت إسرائيل ومَنْ وراء إسرائيل ، أن يجمعوا المعلومات المفصّلة الدقيقة ، عن الجيوش العربية ، وعن أسرارها العسكرية الحيوية .

ولكنّ العرب ، مع الأسف الشديد ، استهانوا بعدوِّهم ، وتهاونوا في (كتمان) أسرارهم العسكرية ، فحلّت بهم النكبة ، وضيّعوا القدس الشريف وأجزاء واسعة من أرضهم .

لقد كنت في سيارة تنهب الأرض نهباً في أحد البلاد العربية ، فسمعت سائقها يتبجّح بعرض معلوماته عن المطارات العسكرية وعن أوكار الطائرات الجاثمة فيها !!

وكان في السيارة عدد من الركّاب لا أعرفهم ، فما سمعت أحداً منهم استنكر أقوال السّائق وأمره بالسّكوت .

وحين تمادى السّائق في غيّه ، حاولت أن أضع حدّاً لحديثه ، ولكنه زعم أن المعلومات التي ذكرها يعرفها كلّ إنسان !!!

ومن المذهل حقّاً ، أن الرُّكّاب الآخرين أيّدوه في ادعائه !!.

هل يعرف كل إنسان كلّ المعلومات الخطيرة عن الأسرار العسكرية العربية

إذا كان الأمر كذلك ، فانّه سيؤدي إلى كوارث لا يعلم إلاّ الله مداها وتأثيرها ، ولا بدّ لكل حريص على شرف أُمّته من أن يتعلّم ( الكتمان ) ويعلّم ( الكتمان ) غيره من النّاس

يجب أن تلقى المحاضرات عن ( الكتمان ) في المدارس والمعاهد والجامعات

ويجب أن يُركّز خطباء الجوامع والكنائس على أهمية التحلي بمزية ( الكتمان ) .

ويجب أن نرسل البعوث إلى المدن والقرى والأرياف لتعليم السُّكّان أهمّيّة ( الكتمان ) .

يجب أن يعرف الشعب كلّه بكل مكان ، أهميّة الحرص الشّديد على المعلومات العسكرية خاصة والمعلومات الأخرى التي لها طابع سري .

يجب أن نحذّر الناس من مغبّة ( الثرثرة ) التي لا طائل من ورائها ولا جدوى ولا فائدة .

إن قضايا ( الكتمان ) لها نتائج حاسمة على النصر والاندحار ، والأمّة التي لا تتحلى بالكتمان الشديد ، لا تنتصر أبداً .

## تراث الكتمان العربي الإسلامي

## - ٣ -

من المعلوم أن ( المباغتة )[١] مبدأ من أهم مبادىء الحرب ، و ( الكتمان ) وسيلة من وسائل تطبيق هذا لمبدأ ، لأن العدو الذي يكشف نيات مَن يحاربه قبل وقت مبكّر ، لا بدّ من أن يعمل بكل طاقاته على إحباط تلك النيات .

وقد كان ( الكتمان ) ولا يزال وسيبقى من سجايا العربي الأصيل ، وفوق ذلك فهو عند المسلم الحق ( دِينٌ ) واجب التمسّك به في السلم والحرب .

ولو أردنا أن نستقصي ما ورد في الأدب العربي شعراً

(١) المباغتة : أقوى العوامل وأبعدها أثراً في الحرب ، وتأثيرها المعنوي عظيم جداً ، وتأثيرها من الناحية النفسية يكمن فيما تحدثه من شلل متوقع في تفكير القائد الخصم . ومن أهم وسائل المباغتة : الكتمان .

ونثراً عن الكتمان ، لطال بنا المقال وبَعُد الشّوط ، وسأقتصر على بعض الأمثال العربية الشائعة .

من تلك الأمثال : « إيّاك وأن يَضْرِب لسانُك عنقك »[1] و « إنّ للحيطان آذاناً »[2] و « صدرك أوسع لسِرِّك »[3] و « الحذر أشدّ من الوقيعة »[4] .

وقال تعالى في كتابه العزيز : ( وإذا جاءهم أمْرٌ من الأمْن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتّبعتمُ الشيطانَ إلاّ قليلا )[5] .

هذا الأمر الالهي يرشد المسلمين ليس إلى أهمية ( الكتمان ) فحسب ، بل إلى وجوب إخبار المسؤولين عن كل أمرٍ يؤثّر في المعنويات تأثيراً سيّئاً ، ليروا فيه رأيهم ، ويضعوا حدّاً لانتشاره وإشاعته ، حتى لا يتفاقم ضرره ، ويتوصّل الذين أذاعوه إلى أهدافهم من إذاعته بسهولة ويُسْر .

وهذا بالطبع يشمل القضايا المصيرية ، أما الأخبار

---

(١) مجمع الأمثال ( ١/ ٧٥ ) – بيروت – ١٩٦٢ .
(٢) مجمع الأمثال ( ١/ ١١٩ ) .
(٣) مجمع الأمثال ( ١/ ٥٥٠ ) .
(٤) مجمع الأمثال ( ١/ ٢٩٣ ) .
(٥) الآية الكريمة من سورة النساء ( ٤ : ٨٣ ) .

عن القضايا الشخصية التافهة فهذا تجسس لا يقره الإسلام .

وقد حذّر الاسلام من إذاعة الأسرار العسكرية ، وجعل إذاعتها من شأن ( المنافقين ) ، وطلب الرُّجوع بها إلى القيادة العامة ، كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا مما يصلهم من أنباء قبل الرُّكون إليها والعمل بها : ( لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة ، لنغرينّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلاّ قليلا )[1] ، وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا )[2] .

ومن حديث رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم قوله : « استعينوا على قضاء الحاجات بالكتمان » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « رحمَ الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم » .

وقال الامام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه : « سرُّك أسيرك ، فان تكلمت به صرت أسيره » .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : « القلوب أوعية الأسرار ، والشِّفاه أقفالها ، والألسنة مفاتيحها ، فليحفظ كل امرىء مفتاح سره » .

---

(١) الآية الكريمة من سورة الأحزاب ( ٣٣ : ٦٠ ) .
(٢) الآية الكريمة من سورة الحجرات ( ٤٩ : ٦ ) .

هذا قليل من كثير مما ورد في كتمان السر من آيات قرآنية وأحاديث نبويّة وأقوال مأثورة ، وكلها تحثّ على الاستمساك بهذه الفضيلة ، وتحذر من العواقب الوخيمة التي تؤدي إليها إفشاء الأسرار .

إنّ السر أمانة ووديعة وعهد ، وما كان للمسلم أن يخون الأمانة ، أو يعبث بالوديعة ، أو ينقض العهد ، والله تعالى يقول : ( وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا )[1]

ويقول الحسن بن علي رضي الله عنه : « إن من الخيانة أن تتحدّث بسر أخيك » .

وإذا كان السر أمانة ووديعة وعهد في العلاقات الشخصية التي تضر بمصالح شخص أو أشخاص ، فان السر أمانة كبرى ووديعة عظمى وعهد وثيق في العلاقات الاجتماعية التي تضر بمصالح الجيش والأمة .

إن الذي يفشي أسرار جيشه وأمته ، مقصر أعظم التقصير في حق جيشه وحق أمته ، وليس له عذر يعتذر به أمام الله وأمام الناس .

---

(١) الآية الكريمة من سورة الإسراء ( ١٧ : ٣٤ ) .

# أمثلة عن الكتمان

## - ٤ -

والدروس العملية التي يستطيع المسلمون أن يتعلّموها من الرّسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام في ( الكتمان ) أكثر من أن تُعَدّ وتُحْصى .

وسأقتصر على نماذج قليلة من الدروس العملية المستنبطة من غزوات النبي صلىّ الله عليه وسلّم وسراياه ، حتى يعرف العسكريون المسلمون والمدنيون أيضاً كيف كان عليه الصّلاة والسّلام يعتمد أقصى درجات ( الكتمان ) في أعماله العسكرية ، فقد يكون في ذلك عبرة للعسكريين خاصة والمدنيين عامة .

فقد بعث النبي صلىّ الله عليه وسلّم سرية من المهاجرين قوامها اثنا عشر رجلاً بقيادة عبد الله بن جحش الأسدي للقيام بواجبات استطلاعية .

وتوجّهت تلك السرية نحو هدفها في رجب على رأس سبعةَ عشر شهراً من مهاجرة رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم ، ومع قائدها رسالة ( مكتومة ) أمره الرسول صلى الله عليه وسلّم ألاّ يفتحها إلاّ بعد يومين من مسيره ، فإذا فتحها وفهم ما فيها ، مضى في تنفيذها غير مستكره

أحداً من أفراد قوته على مرافقته .

كان مضمون تلك الرسالة ( المكتومة ) : « إذا نظرت في كتابي هذا ، فامض حتى تنزل ( نَخْلَة ) بين مكة والطائف ، ( فترصّد بها قريشاً ) ( وتعلم ) لنا من أخبارهم »

وبعد يومين من مسير عبد الله بن جَحْش عن قاعدة المسلمين المدينة المنورة فضّ تلك الرسالة ( المكتومة ) ، وأطْلع رجاله على كتاب النبي صلى الله عليه وسلّم ، وأخبرهم بأن النبي صلى الله عليه وسلّم نهاه أن يستكره أحداً منهم على مرافقته ؛ فلم يتخلّف رجل من رجاله[1] ، وسارعوا إلى تنفيذها فوراً .

لقد ( ابتكر ) الرّسول صلى الله عليه وسلّم أسلوب ( الرّسائل المكتومة ) ، للمحافظة على ( الكتمان ) الشديد ، ولحرمان أعداء المسلمين من الحصول على المعلومات التي تفيدهم عن حركات المسلمين وأهدافهم ، وبذلك أخفى نياته عن العدو والصديق .

لقد سبق المسلمون غيرهم في ( ابتكار ) هذا الاسلوب الدّقيق للكتمان ، قبل أن يفطن إليه ( الألمان ) ويستعملوه في الحرب العالمية الثانية ( ١٩٣٩ — ١٩٤٥ ) .

وربما يكون للألمان عذرهم في انتحال ( إبتكار )

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد ( ٢ / ١٠ ) — بيروت — ١٣٧٦ .

أسلوب ( الرّسائل المكتومة ) لسبب أو لآخر ... وادعاؤهم بأنهم أوّل من فكّر في مثل تلك الرسائل ...

ولكن ، ما عذر المسلمين في مشايعة الألمان في ادعائهم هذا وزعمهم بأن الألمان هم أول مَنْ ابتكر هذا الأسلوب ؟

لقد نسي المسلمون تراثهم ، وأصبحوا يستوردون ما يكتبه الأجانب حتّى في مجالات التراث العربي الاسلامي .

## أثر الكتمان في المباغتة

### - ٥ -

أ - وبلغ النبي صلىّ الله عليه وسلّم بعد شهرين من غزوة ( أُحُد )[١]، أنّ طُلَيْحَة وسَلَمَة ابني خُوَيلد يحرّضان قومهما بني ( أسَد ) بن خزيمة لغزو المدينة المنورة ونهب أموال المسلمين فيها .

وقرّر النبي صلىّ الله عليه وسلّم إرسال دورية قتال بقوّة خمسين ومائة مسلماً من المهاجرين والأنصار بين راكب وراجل ، فيهم أبو عبيدة بن الجرّاح وسعد بن أبي

---

(١) كانت غزوة ( أحد ) في شوال من السنة الثالثة من الهجرة.

وقّاص رضي الله عنهما بقيادة سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه للقضاء على بني ( أسد ) قبل قيامهم بغزو المدينة المنوّرة ؛ وأمرهم النبي صلى الله عليـــه وسلّم بالسير ( ليلاً ) والاستخفاء ( نهاراً ) ، وسلوك طريق غير مطروقة ، حتّى لا يطّلع أحد على أخبارهم ونياتهم ، فباغتوا بذلك بني ( أسد ) في وقت لا يتوقّعونه .

وسار أبو سلمة ( ليلاً ) ، وكمن ( نهاراً ) ، حتّى وصل إلى ديار بني ( أسد ) ، دون أن يعرفوا عن حركته إليهم شيئاً ؛ فأحاط بهم فجراً ، فلم يستطع المشركون الثبات ، ثم ولّوا الأدبار .

وأرسل أبو سلمة مفرزتين من قواته لمطاردتهم ، فعادتا بالغنائم[1] .

ب ـ وفي غزوة ( دُوْمَة الجَنْدَل )[2] قاد النبي صلى الله عليه وسلّم ألف راكب وراجل من المهاجرين والأنصار لمنع القبائل البدوية التي تقطن ( دُوْمَة الجندل ) من قطع الطرق ونهب القوافل ، والقضاء على حشودها

---

(١) الرسول القائد ( ١٩٥ – ١٩٦ ) .

(٢) دومة الجندل : حصن على سبع مراحل من دمشق ، تقع بيـــن دمشق والمدينة المنورة ، فيها حصن مبنى بالجندل ، لذلك سميت بدومة الجندل . انظر التفاصيل في معجم البلدان ( ٤/١٠٦ ) – القـــاهرة – ١٣٢٣ هـ .

التي تزمع غزو المدينة المنورة .

وخرج الرسول صلىّ الله عليه وسلّم بالمسلمين من المدينة المنورة في ربيع الأول من السنة الخامسة الهجرية ، يكمن بهم ( نهاراً ) ويسير ( ليلاً ) .

وقد قطع المسلمون المسافة بين المدينة المنوّرة و ( دومة الجندل ) بخمس عشرة مرحلة ، فلما وصل إليها المسلمون فرّت القبائل خوفاً من لقائهم ، كما فرّ أهل ( دومة الجندل ) فلم يجد المسلمون أحداً منهم .

وعاد المسلمون من ( دومة الجندل ) بعد أن أقاموا فيها بضعة أيام[١] .

حـ - إنّ ( كتمان ) نيّات المسلمين بالمسير ( ليلاً ) ، هو الذي جعلهم ينتصرون على أعدائهم .

لقد كان التفوق العَدَدي والعُدَدي مع أعداء المسلمين ، ولكن ( الكتمان ) هو الذي أدّى إلى انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة باذن الله .

والدّرس الكبير القيّم الذي يمكن استنباطه ، هو (كتمان ) حركة قواتنا من قواعدها إلى أهدافها عن العدو والامتناع عن نشر أخبارها في الاذاعة والاذاعة المصورة[٢]

---

(١) الرسول القائد ( ٢٠٤ - ٢٠٥ ) .

(٢) التلفزيون .

والصحف والمجلات وبكل وسائل الأعلام ، لأنّ أعداءنا لنا بالمرصاد ، فلا يجوز لنا ولا ينبغي أن نكشف لهم نيّاتنا ، مما يحملهم على إعداد الخطط اللاّزمة لاحباط حركاتنا العسكرية في المكان والزمان المناسبين .

## الأثر الشخصي في الكتمان

### -٦-

أ - وفي غزوة ( الأحزاب )[١] التي كانت في شوّال من السنة الخامسة الهجرية ، علم النبي صلى الله عليه وسلّم ، أنّ بني ( قُرَيظة ) من يهود قد نكثوا عهدهم الذي كان بينهم وبين المسلمين ، وذلك بعد تطويق المدينة المنورة من عشرة آلاف مقاتل من قريش وغَطفان وأشْجَع وسُلَيم وبني أسد .

وتحرّج موقف المسلمين كثيراً - وكان عدد مقاتليهم ثلاثة آلاف مقاتل - بعد أن نكثت بني قريظة ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من المسلمين إلى بني قريظة ليتأكد من انضمام بني قريظة إلى الأحزاب ، وأمره أن ( يلحن ) بالقول حين يعود إليه ولا يُفْصِح في حالة

(١) غزوة الخندق .

نكث بني قريظة ، خوفاً على معنويات المسلمين من الانهيار ، وحتى يستكمل المسلمون إعداد ( الخنـــدق ) وإكمال استعداداتهم العسكرية قبل أن ينتشر خبر بني قريظة بينهم .

وحين أكمل المسلمون ما أرادوه إعْدَاداً وعُدَداً ، أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلّم بما كان من أمر قريظة ، ليضعهم عند مسؤولياتهم الكاملة دفاعاً عن الاسلام .

ولو أنّ النبي صلىّ الله عليه وسلم ، سمع باذاعة نبأ نكث بني قريظة عهدها قبل أن يُعِدّ المسلمون كلّ متطلبات القتال ، لانهارت معنويات المسلمين لأنّ الخطر أصبح يهددهم من داخل المدينة المنورة وخارجها .

ب – وفي هذه الغزوة أيضاً ، جاء نُعَيْم بن مَسْعود الغَطَفاني إلى النبي صلىّ الله عليه وسلّم معلناً إسلامه ، وأخبره أنه أسلم ولا يعلم قومه باسلامه ، فقال له النبي صلىّ الله عليه وسلّم : « إنما أنت رجل واحد ، فخذّل عنّا ما استطعت ، فانّ الحرب خدعة » .

وكتم النبي صلى الله عليه وسلّم إسلام نعيم ، فلم يعرف قومه ولا بنو قريظة عن اسلامه شيئاً .

وخرج نعيم حتى أتى بني قريظة ، وكان نديماً لهم في الجاهلية ، فقال لهم : « عرفتم ودي إيّاكم ، وقد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد ، وليسوا كأنتم : البلد

بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون أن تتحوّلوا منه، وإن قريشاً وغطفان إن رأوا نُهْزَةً[1] وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين محمد ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا حتّى تأخذوا منهم رُهُناً[2] من أشرافهم حتّى تناجزوا محمداً » .

قال بنو قريظة : « أشرتَ بالنُّصح ، ولست عندنا بمتّهم » ...

ثم خرج نعيم إلى قريش فقال لهم : « بلغني أن قريظة ندموا ، وقد أرسلوا إلى محمد : هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثمّ نكون معك على مَنْ بقي منهم ؟! فأجابهم : أن نعم ! فان طلبت قريظة منكم رُهُناً من رجالكم ، فلا تدفعوا لهم رجلاً واحداً ... » .

وجاء نعيم غطفان فقال لهم : « أنتم أهلي وعشيرتي ... » وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم ! !

وأرسل أبو سفيان بن حرب وسادة غطفان إلى بني قريظة عِكْرمة بن أبي جَهل في نفر من قريش وغطفان

---

(١) النهزة : الفرصة .

(٢) الرهُن : جمع الرَّهْن ، وهو ما وضع عندك لينوب مناب ما أخذ منك .

في ليلة سبت ، وطلبوا منهم الإستعداد للهجوم على المسلمين نهار السّبت ؛ ولكنّ قريظة اعتذروا بأنّهم لا يقاتلون يوم السّبت ... ثم طلبت قريظة رهائن من قريش وغطفان قبل أن تشرع بأيّ هجوم !!

قالت قريش وغطفان : « لقد صدق نعيم » .

ولما رُفِضَ طلبُ قريظة باعطائها رهائن من قريش وغطفان قالوا : « لقد صدق نعيم » ... !

• تفرّقت قلوب الأحزاب وزالت الثّقة بينهم[1] .

وعاد الأحزاب إلى مواطنهم دون أن يحقّقوا أهدافهم في القضاء على المسلمين .

لقد كانت للإشاعات التي بثّها نعيم لغرض تفريق كلمة الأحزاب ، أثر حاسم في معنويات قريش وحلفائها من القبائل العربية وبني قريظة .

والحرب الحديثة ، تعتمد على بثّ الاشاعات المثيرة لتصديع الصفوف وبلبلة الأفكار .

وقسم بث الاشاعات من أهم أقسام شعب الاستخبارات[2] العسكرية في تشكيلات الجيوش ومقراتها العليا .

---

(١) انظر التفاصيل في : الرسول القائد ( ٢٢٢ – ٢٢٣ ) .
(٢) المخابرات .

والسؤال الآن : لو لم يطبِّق الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام أسلوب ( الكتمان ) الشديد ، ولو لم يطبِّق نعيم هذا الاسلوب ، فهل كان بامكان نعيم أن يقوم بهذا الدور الحاسم في تفرقة صفوف الأحزاب ونزع الثقة من نفوسهم ؟!

## الكتمان بالاسلوب

## - ٧ -

أ - وفي غزوة بني ( لِحْيان ) الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء ( الرَّجيع ) ، أراد النبي صلى الله عله وسلَّم معاقبتهم على فعلتهم .

كما علم النبي صلى الله عليه وسلم بمحاولة قريش التجمّع مع حلفائها لغزو المسلمين ، ففكر في الحركة إليهم ، للتأثير في معنويات قريش والقبائل الأخرى ، وللتعرّض ببني لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين .

وأظهر النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، أنّه يريد ( الشَّام ) حتّى يستطيع مباغتة بني لحيان دون أن يعرفوا بحركته إليهم .

وتحرّك النبي صلىّ الله عليه وسلَّم بقواته شمالاً ، فلما اطمأنَّ الى انتشار خبر حركته إلى الشمال باتجـــاه

( الشام ) ، كرّ راجعاً باتجاه مكة المكرّمة جنوباً ، مسرعاً في حركته ، حتى وصل إلى منازل بني ( لحيان ) بـ ( غَـرّان )[1].

ولكنّ بني ( لحيان ) فرّوا إلى رؤوس الجبال ، واستطاعوا النّجاة بأرواحهم وأموالهم[2] .

لقد ( كتم ) النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم اتجاه حركته ، فسار شمالاً ثم عاد جنوباً ، فكانت هذه الغزوة انتصاراً معنوياً للمسلمين على بني ( لحيان ) ؛ والنصر المعنوي لا يقلّ أهمية عن النصر المادي .

ب ــ وفي غزوة ( خَيْـبر )[3] التي كانت في المحرم من السّنة السابعة الهجرية ، كان يهود ( خيبر ) قد حالفوا غطفان على أن تعاون غطفان يهود خيبر اذا داهمهم الخطر من المسلمين .

ولكي يحول النبي صلىّ الله عليه وسلّم بين تعاون غطفان ويهود ( خيبر ) في حرب المسلمين ، تحرّك بأصحابه إلى مواضع ( الرَّجيع ) من أرض غطفان ، وبهذه الحركة استطاع النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، إيهام غطفان بأن المسلمين يريدونهم ، وأن قوات المسلمين توشك أن

---

(١) غران : منازل بني لحيان ، وغران واد بين أمج وعسفان. وعسفان : موضع بين الجحفة ومكة المكرمة وهي من مكة المكرمة على مرحلتين. انظر التفاصيل في معجم البلدان ( ٦/ ١٧٤ ) .

(٢) أنظر التفاصيل في الرسول القائد ( ٢٣٨ - ٢٣٩ ) .

(٣) خيبر : ناحية على ثمانية برد من المدينة المنورة لمن يريد الشام . أنظر التفاصيل في معجم البلدان ( ٣/ ٤٩٥ ) .

تطوقهم وتقضي عليهم .

وعاد النبي صلّى الله عليه وسلم إلى ( خيبر ) ، ولكنّه بعث بمفرزة من أصحابه لمباغتة ديار غطفان بعد أن تركتها قوّات غطفان لمعاونة يهود ( خيبر ) .

ونجحت هذه المفرزة في إلقاء الرُّعب في ديار غطفان ، مما اضطر هذه القبيلة إلى الاسراع بالعودة إلى ديارها لحمايتها من تهديد المسلمين ، وتركت يهود ( خيبر ) وحدهم أمام المسلمين .

وهكذا نجحت خطة الرسول صلّى الله عليه وسلَّم في عزل يهود ( خيبر ) عن غطفان حلفائهم .

ولعلّ أهم عامل من عوامل انتصار المسلمين على يهود ( خيبر ) في هذه الغزوة ، هو عامل ( الكتمان ) ، الذي جعل غطفان يظنون أن النبي صلى الله عليه وسلَّم يريدهم في غزوته .

## دروس من غزوة الفتح

## - ٨ -

أ - وفي غزوة فتح ( مكة ) المكرمة التي كانت في رمضان من السنة الثامنة الهجرية ، بلغ النبي صلّى الله عليه وسلَّم في تطبيق عامل ( الكتمان ) حدّ الرّوعة ، حتى ليمكن اعتبار هذه الغزوة مثالاً من أعظم أمثلة التاريخ

العسكري في تطبيق ( الكتمان ) إلى أبعد الحدود .

أمر النبي صلىّ الله عليه وسلّم أصحابه بانجاز استعداداتهم للحركة ، وبعث إلى القبائل المسلمة مَنْ يخبرها بانجاز استعداداتهم للحركة أيضاً .

كما أمر أهله أن يجهّزوه ، ولكنه لم يخبر أحداً من المسلمين في الداخل أو الخارج بنياته وأهدافه من حركته واتجاهها .

بل أخفى نياته وأهدافه واتجاه حركته حتى عن أقرب المقربين إليه ، ثم أرسل سرية أبي قَتَادة الأنصاري إلى بطن ( إضم ) ليزيد من إسدال السِّتار الكثيف على نياته وأهدافه الحقيقية .

دخل أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه إلى ابنته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وهي تُهيّيء جهاز النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، فقال لها : « أي بُنَيَّة ! أأمركم رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم أن تجهّزوه ؟ » ، قالت : « نعم ، فتجهّز » ، قال : « فأين ترينه يريد ؟! » قالت : « والله لا أدري ! » .

ب ـ ولما اقترب موعد الحركة ، صرّح الرسول صلىّ الله عليه وسلّم بأنه سائر إلى مكّة المكرمة ، ولكنه بثّ عيونه وأرصاده ليحول دون وصول أخبار اتجاه حركته الى قريش .

بعث حاطبُ بن أبي بلتعة رسالة أعطاها امرأة متوجّهة إلى مكّة المكرمة ، أخبرهم في تلك الرّسالة بنيّات المسلمين في التوجّه إلى فتح مكة المكرمة .

وعلم النبي صلىّ الله عليه وسلّم بهذه الرسالة ، فبعث علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه والزبير بن العوّام رضي الله عنه ، ليدركا تلك المرأة التي تحمل تلك الرّسالة ، فأدركاها وأخذا الرسالة منها .

ودعا رسول الله صلىّ الله عليه وسلم حاطباً يسأله : « ما حملك على ذلك ؟! » .

قال حاطب : « يا رسول الله ! أما والله ، إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيّرت ولا بدّلت . ولكنني كنت امرءاً ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم » !

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : « يا رسول الله ! دعني فلأضرب عنقه ، فانه قد نافق » .

وقال النبي صلىّ الله عليه وسلّم : « أما إنه قد صدقكم ، وما يدريك ؟ لعلّ الله اطّلع على من شهد ( بَدْراً ) فقال : اعملوا ما شئتم » .

لقد شفع لحاطب ماضيه الحافل بالجهاد ، فعفا عنه

النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، وأمر المسلمين أن يذكروه بأفضل ما فيه[1] .

ذلك هو مبلغ يقظة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسَّلام وحذره ، حرصاً على عدم تسرّب المعلومات عن المسلمين إلى المشركين ، تطبيقاً عملياً للكتمان الشديد .

وذلك هو مبلغ حرص الصحابة على الكتمان ، حتى ليتقدم صحابي جليل مثل عمر الفاروق رضي الله عنه ، إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم ، مستأذناً بقتل حاطب بن أبي بلتعة ، لأنه لم يحافظ على الكتمان الشديد .

جـ ــ لقد حرص النبي صلىّ الله عليه وسلّم أشدّ الحرص ، على ألاّ يكشف نياته ، عندما اعتزم الحركة لفتح مكة المكرمة ، وكان سبيله إلى ذلك ( الكتمان ) الشديد .

لم يبح بنياته لأقرب أصحابه إلى نفسه وأعزهم عليه : أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

بل لم يبح بنياته تلك إلى أحب نسائه إليه وأقربهن إلى نفسه : عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وبقيت نياته سراً مكتوماً حتى أنجز هو وأنجز أصحابه

---

(١) الرسول القائد ( ٢٢٤ – ٢٢٥ ) .

جميع استعدادات الحركة ، وحتى وصل أمره الانذاري[1] إلى القبائل المسلمة خارج المدينة المنورة لانجاز الاستحضارات

ولكنه أباح بنياته في الحركة إلى مكة المكرمة قبيل خروجه من المدينة المنورة ، حيث لم يبق هناك مبرر للكتمان ، لأن الحركة أصبحت وشيكة الانطلاق ، ولأن الوقت اللازم لوصول المعلومات اللاّزمة عن حركته إلى مكة لم يكن متيسراً .

ومع ذلك فانه بث عيونه وأرصاده ودورياته ، لتحول دون تسرّب المعلومات عن حركته إلى قريش .

بثّ عيونه وأرصاده داخل المدينة المنورة ، ليقضي على احتمال لتسرب أخبار حركته من أهلها إلى قريش ؛ وقد رأيتَ كيف اطلع على إرسال حاطب بن أبي بلتعة برسالته إلى مكة المكرمة ، فاستطاع أن يحجز تلك الرسالة قبل أن تصل إلى مثابتها .

وبثَّ دورياته الاستطلاعية داخـــل المدينة المنورة وخارجها ، ليمنع قريشاً من الحصول على المعلومات عن نيات المسلمين ، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من

---

(١) الأمر الانذاري : تعبير عسكري ، يقصد به الأمر التمهيدي الذي يصدر ( مبكراً ) قبل إصدار الأوامر المفصلة ، لغرض إعطـاء فكرة للقادة المرؤوسين عن الحركة المقبلة ، ولكي تنجز الاستحضارات اللازمة بكفاية لهذه الحركة .

ارسال تلك المعلومات إليها .

وبقي النبي صلى الله عليه وسلّم يقظاً كل اليقظة ، حتى وصل إلى ضواحي مكّة المكرمة ، فنجح أعظم النجاح بترتيباته الوقائية التي اتخذها لحرمان قريش وحلفائها من معرفة نيات المسلمين[1] .

فقد وصل جيش المسلمين ( مرّ الظهران ) على مسافة أربعة فراسخ من مكّة المكرّمة ، فعسكر هناك .

وأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم ، أن يوقد كلّ مسلم في جيشه ناراً ، حتى ترى قريش ضخامة جيش المسلمين دون أن تعرف هويّته ، فيؤثّر ذلك في معنوياتها وتستسلم للمسلمين دون قتال ، وبذلك يؤمّن النبي صلّى الله عليه وسلّم خطته العسكرية في دخول مكة المكرمة دون إراقة الدّماء .

وأوقد عشرة آلاف مسلم نيرانهم ، ورأت قريش تلك النيران الكثيرة تملأ الأفق البعيد .

وأسرع أبو سفيان بن حرب وبُدَيل بن وَرْقاء الخزاعي وحكيم بن حزام بالخروج من مكّة المكرمة متّجهين نحو مصدر تلك النيران ، فلما اقتربوا من موضع معسكر المسلمين ، قال أبو سفيان لصاحبه بديل : « ما

(٢) الرسول القائد ( ٣٣٧ - ٣٣٨ ) .

رأيتُ كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً » .

وردّ بديل على أبي سفيان قائلاً : « هذه والله خزاعة حمشتها[1] الحرب » .

ولم يقتنع أبو سفيان بجواب بديل ، فقال : « خزاعة أقلّ وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها »[2].

لقد كانت قريش تعرف حق المعرفة ، بأن المسلمين سيهاجمون مكة المكرمة ، ولكنها لم تكن تعرف متى وكيف وأين سيجري الهجوم المتوقّع .

والفضل في ذلك للكتمان الشديد الذي كان الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام لا يتخلّى عنه طرفة عين في القضايا العسكرية المصيريّة .

ذلك لأنّ نيات المسلمين في مهاجمة مكّة المكرمة وفتحها ، لو انكشفت لقريش في وقت مبكر : لاستطاعت أن تحشد قواتها وقوات حلفائها ، ولأعدّت خطة عسكرية لاحباط هجوم المسلمين ، ولكان بامكانها مقاومة المسلمين أطول مدة ممكنة ، ولأوقعت بقوات النبي صلى الله عليه وسلّم خسائر في الأرواح والأموال دون مبرّر .

---

(١) حمش النّاس وغيرهم : جمعهم . وحمش فلاناً . هيجه وأغضبه . وحمش القوم : ساقهم بغضب .

(٢) الرسول القائد ( ٣٢٦ ) .

د ـ وكما (كتم) النبي صلى الله عليه وسلّم نياته في غزو ( مكّة ) المكرمة ، وموعد حركته من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة .

فقد استطاع عليه الصلاة والسَّلام ، أن ( يكتم ) عدد قواته الزاحفة لفتح مكّة المكرّمة أيضاً .

كان العبَّاس عمّ النبي صلىّ الله عليه وسلَّم ، قد خرج من معسكر المسلمين في ( مَرّ الظَّهْرَان ) ـ ضاحية من ضواحي مكّة المكرّمة ـ ، وكان العباس على بغلة النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، وكان هدفه من خروجه هو إخبار قريش بالجيش الضخم الذي جاء لقتالها والذي لا قِبَل لها به ، حتى يؤثّر في معنوياتها ويضطرها إلى الاستسلام دون قتال ، فيحقن بذلك دماءها ، ويؤمّن لها صلحاً شريفاً مع المسلمين ويخلّصها من معركة خاسرة لا يمكن أن تثيرها غير العصبية الجاهلية .

وفي طريقه إلى مكّة المكرمة ، سمع حديث أبي سفيان ابن حرب وبديل بن ورقاء ، فعرف العبّاس صوت أبي سفيان ، فناداه وأخبره بوصول جيش المسلمين ، ونصحه أن يلجأ إلى النبي صلىّ الله عليه وسلَّم حتى ينظر في أمره قبل أن يدخل جيش المسلمين مكّة المكرمة صباح غدٍ ، فيحيق به وبقومه العقاب .

واستجاب أبو سفيان لنصيحة العبّاس ...

أردف العباس أبا سفيان على بغلة النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، وتوجّها نحو معسكر المسلمين ، فلما وصل العبّاس المعسكر ودخله ، مرّ بنيران المسلمين في طريقه إلى خيمة النبي صلىّ الله عليه وسلّم .

ورآه المسلمون ، فلم ينكروا شيئاً ، لأنهم عرفوا العبّاس ، فلما مرّ العباس بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عرف أبا سفيان ، وأدرك أنّ العبّاس يريد أن يُجيره .

وأسرع عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إلى خيمة النبي صلى الله عليه وسلّم ، فلما وصل إليها طلب من النبي صلى الله عليه وسلّم أن يأمره بضرب عنق أبي سفيان .

ولكنّ النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، طلب من عمّه العبّاس رضي الله عنه ، أن يستصحب أبا سفيان إلى خيمته ، فاذا انقضى الليل أحضره صباح غدٍ .

فلما كان الصباح ، وجيء بأبي سفيان إلى النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، أعلن أبو سفيان إسلامه ، فعفا النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم عنه وحقن دمه .

وقال العباس رضي الله عنه : « يا رسول الله ! إن أبا سفيان يحبّ هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً » .

قال النبي صلىّ الله عليه وسلّم : « نعم ! مَنْ دخل

دار أبي سفيان فهو آمِنٌ ، ومَن أغلقَ بابه فهو آمِنٌ ومَن دخل المسجد فهو آمِنٌ » .

وأراد النبي صلّى الله عليه وسلم أن يستوثق من سير الأمور كما يحبّ بعيداً عن وقوع الحرب بين المسلمين وقريش ، فأوصى العبّاس رضي الله عنه باحتجاز أبي سفيان في مضيق الوادي الذي سيمر منه جيش المسلمين وشيكاً ، حتّى يستعرض الجيش الزاحف كلّه ، فلا تبقى في نفسه أيّة فكرة للمقاومة .

قال العباس رضي الله عنه : « خرجت بأبي سفيان ، حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

« ومرّت القبائل على راياتها : كلّما مرّت قبيلة قال : يا عبّاس ! مَنْ هؤلاء ؟! فأقول : سُلَيْم ! فيقول : مالي ولسُلَيم ؟! ثم تمر القبيلة، فيقول : يا عبّاس ! مَنْ هؤلاء ؟ ! فأقول : مُزَيْنَة ! فيقول : مالي ولمزينة ؟! حتى نفدت القبائل، ما تمرّ قبيلة إلاّ سألني عنها ، فاذا أخبرته ، قال : مالي ولبني فلان ..... !

« حتى مرّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يُرَى منهم إلاّ الحدُق من الحديد ، فقال : سبحان الله ! يا عبّاس ! مَنْ هؤلاء ؟! قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلّم

في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحدٍ بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل ! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغَدَاةَ عظيماً ...

« قال العَبَّاس : يا أبا سفيان ! إنّها النبوّة . قال : نعم إذن » .

عند ذاك قال العَبَّاس رضي الله عنه لأبي سفيان : « النجاء إلى قومك ! » .

فأسرع أبو سفيان إلى مكة المكرّمة ، فدخلها مبهوراً مذعورا[1] .

هـ — ليس من السّهل أبداً ، أن يتحرّك جيش تَعْداده عشرة آلاف راكب وراجل ، مؤلف من كل القبائل العربية تقريباً ، من المدينة المنورة إلى مكة المكرّمة ، دون أن تعرف قريش ، ودون أن يعرف حلفاؤها ، وقت حركة هذا الجيش الاسلامي اللّجب ونياته وعَدَده وعُدَده ... حتى يصل المسلمون الفاتحون إلى ضواحي مكة المكرمة ، فيفلت الأمر من قريش وحلفائها ولا يجدون أمامهم غير الاستسلام !

إن (كتمان) النبي صلىّ الله عليه وسلّم نياته حتّى عن أقرب المقربين إليه ، وكتمان وقت حركته وتعداد

---

(١) الرسول القائد ( ٣٢٦ – ٣٢٨ ) .

جيشه وتنظيمه وتسليحه ، هو الذي أدّى إلى الفتح القريب .

إنّ دروس فتح مكّة ، في ( الكتمان ) الشديد ، يمكن أن تعتبر – كما قلتُ سابقاً – مثالاً رائعاً لمزايا التمسّك بأهداب ( الكتمان ) الشديد .

ولعلّ هذه الغزوة ودروسها في ( الكتمان ) ، تكون على رأس ما يدرّس في الكليّات العسكرية العربية والاسلامية وكليات الأركان ، من تاريخ الحرب ، ليعرف العسكريون العرب والمسلمون ، كيف كان النبي صلىّ الله عليه وسلّم في مجال ( الكتمان ) ، وكيف كان ينتصر على أعدائه لتطبيقه هذا العامل الحيوي من عوامل وضع مبدأ ( المباغتة ) في حيّز التنفيذ .

## عوامل أخرى في الكتمان

### – ٩ –

أ – ذلك هو جانب من جوانب عظمة الرسول صلىّ الله عليه وسلّم العسكرية ، وهو جانب تطبيق عامل ( الكتمان ) الشديد .

والعوامل العسكرية الأخرى التي طبّقها الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسّلام ، لا تقل روعة وجلالاً عن

تطبيقه عامل ( الكتمان ) .

إنّ حياة النبي صلىّ الله عليه وسلّم العسكرية مليئة بالعبر والعِظات ، والدروس والحِكَم ، تستحق دراسة الدارسين وبحوث الباحثين .

لقد كانت تدابير النبي صلى الله عليه وسلّم في ( الكتمان بالغة حدّاً رفيعاً ، حتّى ليمكن أن تكون أساليبه في ( الكتمان ) مثالاً يُحتْذى في كل زمان ومكان .

كان له في المدينة عيون وأرصاد ، يطلعونه على كلّ صغيرة وكبيرة تضرّ بالمصلحة العامة في السلم والحرب على حد سواء .

كان حُذَيْفَة بن اليَمَان العبسي[1] رضي الله عنه صاحب سر رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم في المنافقين لا يعلمهم أحد غيره[2] ، أي أنه كان كاتم سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم في حياته[3] ، اختاره دون غيره من أصحابه ، لتمتعه بمزايا ( الكتمان ) الشديد ، فلا يُفشي

---

(١) انظر تفاصيل سيرته في: قادة فتح بلاد فارس ( ١٠٨ – ١١٧ ) – بيروت – ١٣٨٥ هـ .

(٢) أسد الغابة ( ١/٣٩١ ) والاستيعاب ( ١/٣٥٠ ) وفتح الباري بشرح البخاري ( ٧/٧٢ ) .

(٣) كاتم السر : هو ضابط الاستخبارات ( المخابرات ) ، كما يعبر عنه العسكريون المحدثون .

سرّه لأحد ، وبحضور البديهة فلا يرتبـــك في المواقف الحرجة ، وبتقديره العميق لأهمّية صيانة المعلومات العسكرية عن الأعداء فلا يُفشي نيّاته ونيّات المسلمين وأهدافهم ، وبالذكاء الخارق وبموهبة حب الاستطلاع .

هذه المزايا ، هي مزايا كاتم السر المثالي ، وكان لها أثر في حياته كلها : كلما وجد أو سمع (خَبَراً) يؤثّر في مصير الاسلام والمسلمين ، (أخبر) به المسؤولين فوراً[1] .

ولم يكن حذيفة بن اليمان وحده يؤدي هذا الواجب ، بل كان من واجب كل مسلم أن يؤدي واجبه في مراقبة المشبوهين والمنحرفين والمنافقين وأعداء الاسلام والمسلمين .

سمع عُمَيْرُ بن سعد الأنصاري الأوسي[2] جلاّس ابن سُوَيد بن الصّامت[3] الذي تخلف عن غزوة (تبوك) يقول ما لا يليق بمسلم ، فرفع عمير ما قاله جلاّس إلى النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، وكان عمير في كنف جلاّس الذي تزوّج أمّه بعد أبيه ، فقال عمير لجلاّس : « والله

(١) انظر التفاصيل في : قادة فتح بلاد فارس ( ١١٦ ) .
(٢) انظر سيرته في : قادة فتح العراق والجزيرة ( ٤٦٩-٤٧٥ ) - القاهرة - ١٩٦٤ .
(٣) انظر سيرته في الإصابة ( ١/ ٢٥٢ ) وأسد الغابة ( ١/ ٢٩٢ ) والاستيعاب ( ١/ ٢٦٤ ) . وأنظر مجمل سيرته في هامش : قادة فتح العراق والجزيرة ( ٤٦٩ ) .

يا جلاّس ! إنك لأحبّ الناس إليّ وأحسنهم عندي يداً ، وأعزّه عليّ أن يصيبه شيء يكرهه . ولقد قلتَ مقالة لئن رفعتُها عليك لأفضحنّك ، ولئن صمتُّ عليها ليهلكنّ ديني ، ولأحدهما أيسر عليّ من الأخرى » ، فحلف جلاّس لرسول الله صلىّ الله عليه وسلّم : « لقد كذب عليّ عمير ، وما قلتُ ما قال عمير بن سعد » ؛ فأنزل الله عزّ وجلّ فيه : ( يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهمّوا بما لم ينالوا ، وما نقموا إلاّ أن أغناهم الله ورسوله من فضله ؛ فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولّوا يعذّبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ، وما لهم في الأرض من وليّ ولا نصير )[1] ، فتاب جلاّس وحسنت توبته ، حتّى عرف منه الخير والاسلام[2] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلّم لعمير بعد نزول تلك الآية الكريمة في تصديق ما قاله عن جلاّس : « وفت أذنك يا غلام ، وصدّقك ربك »[3] .

لقد كان كل مسلم حق ، حارساً أميناً على الأسرار العسكرية وعلى كل مصالح المسلمين العليا .

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة ( ٩ – ٧٤ ) .
(٢) سيرة ابن هشام ( ٢/ ١٤١ ب ١٤٢ ) .
(٣) الاستيعاب ( ٣/١٢١٦ ) وأسد الغابة ( ٤/ ١٤٤ ) .

ب ــ وكما كان للنبي صلىّ الله عليه وسلّم عيون وأرصاد داخل المدينة المنورة ، ليضمن بهم تماسك الجبهة الداخلية للمسلمين في قاعدتهم الأمينة ( المدينة ) ، وليحول دون انهيار حصونه من الداخل في المدينة المنورة .

كذلك كان له عيون وأرصاد خارج المدينة المنورة : في مكة المكرمة ، وفي القبائل العربية المعادية ، وفي أرض الرُّوم وبلاد فارس ، يخبرونه عن كلّ صغيرة وكبيرة تضرّ أو يمكن أن تضرّ بمصالح الاسلام والمسلمين العليا .

ذلك ما يفسّر لنا ، أسباب انتصاره على أعدائه الكثيرين ، ذلك لأنه كان يطّلع على نياتهم العدوانية قبل وقت مبكر ، فيعمل من جانبه على إحباط ما يبيّتونه للاسلام والمسلمين من غدر وخيانة ودسائس ومؤامرات .

وذلك ــ أيضاً ، يفسّر لنا أسباب عدم استطاعة المشركين ويهود وأعداء المسلمين أن يباغتوا قوات النبي صلىّ الله عليه وسلّم في الزمان والمكان والاسلوب ، بينما استطاع الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسّلام ، أن يباغت أعداء الدين الجديد في معظم غزواته وسراياه .

كانت عيونه وأرصاده خارج المدينة المنورة مــن المسلمين الذين يخفون اسلامهم ، أو من ذوي قرباه ورَحِمِه .

قبل غزوة ( أُحد ) أرسل العباس عم النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم رسالة يخبره بها عن وقت خروج قريش لقتاله

وعن عدد قوات قريش ، فأسرع حامل رسالة العبّاس رضي الله عنه بايصال تلك الرسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلّم ، حتى قطع المسافة بين مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة بثلاثة أيام ، فوجد النبي صلىّ الله عليه وسلّم ماكثاً بمسجد ( قُبَاء )[1] ، فدفع إليه بالرسالة[2] .

كما أخبر العباسُ وغيره من أهل مكة المكرّمة النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم ، بكل حركات ونيات قريش وحلفائها .

وما يقال عن العباس وأهل مكة المكرمة ، يقال عن الكثيرين من النّاس ، الذين يعيشون بين القبائل العربية المعادية للمسلمين ، أو يعيشون في بلاد فارس وأرض الرُّوم .

ولست بحاجة إلى أن أذكر بأن الله سبحانه وتعالى كان مع النبي صلىّ الله عليه وسلّم : يؤيده بنصره ، ويمدّه بعونه .....

ولكنّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، كان بدوره يُعِدُّ كلَّ متطلّبات النّصر ، حتى يكون قدوة حسنة

---

(١) قباء : قرية على ميلين من المدينة المنورة ، على يسار القاصد الى مكة المكرمة . أنظر التفاصيل في معجم البلدان ( ٧/ ٢١ ) .

(٢) الرسول القائد ( ١٦٢ ) .

لأمته من بعده ، وحتى يطبّق عملياً كلّ آيات الجهاد[1] في الاسلام ومنها قوله تعالى : ( وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، تُرهبون به عدوّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون )[2] .

ولعلّ من أهم متطلّبات القتال ، هو ( الكتمان ) .

والقاعدة الذهبية المعروفة ، هي أن الأمة التي ( تكتم ) أسرارها الحربية ، هي الأمة التي يمكن أن تنتصر .

والأمة التي لا ( تكتم ) أسرارها الحربية ، هي الأمة التي لا يمكن أن تنتصر .

وما يقال عن الأمة يقال عن الأفراد ، لأن الأمة تتكون من أفراد ، والبناء الضخم يتكوّن من ذرّات .

والعسكريون خاصة ، مطالبون بأن يكونوا في ذروة ( الكتمان ) الشديد .

والمدنيون أيضاً ، مطالبون بأن يكونوا في ذروة ( الكتمان ) الشديد أيضاً ، لأنّ الجيش من الشعب ،

---

(١) ورد الجهاد في ( ٣٦ ) آية من آيات الذكر الحكيم . انظر التفاصيل في المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ( ١٨٢ — ١٨٣ ) .

(٢) الآية الكريمة من سورة الأنفال ( ٨ — ٦٠ ) .

ونيات الجيش لا يمكن أن تخفى على الشعب .

والقادة يجب أن يكونوا نموذجاً رفيعاً في ( الكتمان ) .

والقائد الذي لا يتحلىّ بمزية ( الكتمان ) يقود رجاله ( حتماً ) إلى الهاوية .

وإفشاء الأسرار الحربية خيانة بالنسبة للمدنيين والعسكريين على حد سواء .

وإفشاء تلك الأسرار خيانة عظمى بالنسبة للقـــادة العسكريين والقادة المدنيين أيضاً .

والذي لا ( يكتم ) الأسرار العسكرية لأمته ، فانّ وجوده فيها من مصلحة أعداء أمته .

وكفى خزياً وعاراً لفرد في شعب يكون وجوده فيها ليس من مصلحة شعبه بل من مصلحة أعداء شعبه .

وَرُبَّ كلمة عابرة يحسبها المرء تافهة ، وهي في واقعها سراً عسكرياً يؤدي إفشاؤه إلى كارثة عسكرية .

وتاريخ الحروب خير شاهد ، وفيه عبر لمن اعتبر .

إنّ ( الكتمان ) في الاسلام ( دين ) ، حثّ عليه القرآن الكريم ، وأمر به النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، وطبّقه في كل حياته العسكرية .

وصدق رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام :

« من حُسْنِ اسلام المرء تركه مالا يعنيه » .

وحسب المسلم الحق ، أن يتأسّى بالنبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسّلام ، وإلاّ فهو مسلم جغرافي أو مدّع للاسلام أو متّهم بأنه مسلم والاسلام منه براء .

# كيف نكتم الاسرار

## – ١٠ –

والسؤال الآن : كيف نكتم أسرارنا العسكرية ؟

والجواب على ذلك سهل يسير ، ولكن العمل على وضعه في حيّز التنفيذ يحتاج إلى جهد كبير .

لقد أصبحت (الثرثرة) عادة مستحكمة في نفوس الكثيرين ، وهي من جملة عيوبنا التي يجب أن نحاربها بدون هوادة ورحمة .

والذين يقدّرون قيمة الحفاظ على الأسرار العسكرية ، عليهم أن ينصحوا الذين يثرثرون بهذه الأسرار هنا وهناك ليشبعوا في نفوسهم رذيلة حب الظهور .

إنّ من واجب مَنْ يعرف للكتمان مزيته ، أن يبادر إلى إسكات كل من يمسّ الأسرار العسكرية من بعيد أو قريب .

أما أن يستمع ويصغي مع الآخرين إلى إذاعة الأسرار العسكرية ، ثم لا يقول كلمة الحق صريحة حاسمة ، فهو شريك للمذيع في إفشاء تلك الأسرار .

كما يجب تدريب أفراد الجيش وضباطه على أرفع درجات ( الكتمان ) .

لقد كان من أسباب هزيمة العرب في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، هو أن إسرائيل –كما صرّح قادتها ، استطاعت جمع أدق المعلومات العسكرية عن العرب من ناحية ، واستطاعت كتمان أسرارها العسكرية عن العرب من ناحية أخرى .

ومن الغريب جداً ، أن بعض أجهزة الاعلام العربية ، هيّأت لاسرائيل معيناً لا ينضب من المعلومات عن الجيوش العربية وأسرارها التي كـــان من الواجب أن تكون في حرز حريز .

ليس من ( الكتمان ) في شيء ، نشر وإذاعة تنقلات القطعات العسكرية من مكان الى آخر .

وليس من ( الكتمان ) نشر وإذاعة شراء الأسلحة وكمياتها ومستودعاتها ونشر تصاويرها .

وليس من ( الكتمان ) نشر وإذاعة نياتنا وأهدافنا وما نريد عمله في الميدان .

والرجل الذي يريد القضاء على خصمه ، لا يمكن أن يقول له كل يوم : سأقضي عليك ... سأقتلك ... الخ ...

ومن المعقول ، بل من البديهي ، أن يكتّم هذا الرجل نياته ، بل يتظاهر بعكس ما يريده لغرض تضليل خصمه .

فكيف إذا أراد شعب من الشعوب ، القضاء على خصمه دفاعاً عن الحق المغتصب ، أن يقول له بمناسبة وبغير مناسبة علناً : سأقضي عليك ... سأفعل فيك الأفاعيل ؟! ...

يجب أن يكون شعار كل فرد من العرب ... ومن المسلمين : لا أسمع ... لا أرى ... لا أتكلم ...

ويجب أن يكون شعار الشعب العربي والأمة الاسلامية : لا أسمع ... لا أرى ... لا أتكلّم ...

إنّ الظروف الراهنة تحتّم علينا جميعاً الالتزام بالكتمان الصارم .

وقد رأينا كيف هيأ الالتزام بالكتمان للمسلمين الأولين النصر المؤزر .

فهل نعتبر بدروس الكتمان التي طبقها الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام قبل أربعة عشر قرناً ، أم لا نزال بحاجة الى النكسات والنكبات ؟

# الخاتمة

إذا كان ( الكتمان ) واجباً في الأمم ، يلتزم به كل فرد من الأفراد ، فإن ( الكتمان ) في الاسلام دين يلتزم به كل مسلم صحيح الإيمان .

والمسلم الحق كتوم ، لأنه يعمل بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « قل خيراً أو فاسكت » .

وإذا كان ( الكتمان ) في الحروب القديمة ضروري للجيوش ، فإن ( الكتمان ) في الحروب الحديثة أكثر من ضروري ، نظراً لاختراع أجهزة التصنت والوسائل العلمية المذهلة لجمع المعلومات .

الأجهزة اللاسلكية تنقل المعلومات الى العدو بسرعة خاطفة .

وهناك طائرات تجسس تطير بدون طيار ، وهناك غواصات تجسس تسير بالطاقة الذرية .

وهناك أجهزة إصغاء تنقل الهمس داخل الجدران الى العدو بسهولة ويسر .

ولعل الذي قال : « للجدران آذان » قد نظر من وراء الغيب الى أجهزة التجسس الألكترونية وأثرها في نقل المعلومات الى العدو بسرعة خاطفة .

يجب أن نتعلم ( الكتمان ) ونلقنه أولادنا ونساءنا ، حتّى يصبح طبيعة في نفوسنا ، فذلك وحده يفوّت على العدو أهدافه التجسسية .

إنّ لدينا كلاماً كثيراً نستطيع قضاء الوقت فيه بدون التطرّق الى القضايا العسكرية .

فحرام علينا أن نلهو بالأسرار العسكريـــة فنتيح للعدو فرصة اقتناصها والعبث بمصائرنا .

والحمد لله أعظم الحمد ، وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين .

# الفهـــــرس

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |